عبد الرحمن بن هرمز (الأعرج)

التابعى الجليل

لئن كانت الإسكندرية تعتز بالصحابى الجليل أبى الدرداء ، وبالضريح الموجود بها والمنسوب إليه[1] ، فإنها تعتز أيضاً بتابعى من التابعين الأجلاء تجمع المصادر على أنه زارها وأقام بها وقتا ما وتوفى بها[2] .

هذا التابعى الجليل هو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج .

وقد زار الاسكندرية عدد من الصحابة الأجلاء ، وعدد آخر من التابعين الكرام ، ولكنها — لأمر ما — لم تحتفظ إلا بذكرى واحد من هؤلاء وهو أبو الدرداء ، وذكرى واحد من أولئك هو عبد الرحمن ابن هرمز .

والمتفق عليه أن الصحابى هو كل مسلم رأى النبى — عليه السلام — ولو ساعة ، وإن لم يجالسه ويخالطه ، وإن كان معظم أهل الأصول يشترطون فى الصحابى مجالسة الرسول .

والمتفق عليه كذلك أن التابعى هو الذى رأى صحابيا ، وإن كان البعض يشترطون فى التابعى أن يكون جالس صحابيا .

---

(١) أثبتنا فى بحث آخر أن أبا الدرداء لم يمت ولم يدفن بالاسكنددرية ، وإنما مات ودفن فى دمشق ، انظر : (جمال الدين الشيال : أبو الدرداء الصحابى الجليل ، مقال بالمجلة ، العدد ٥ ، مايو ١٩٥٧ ، ص ٩٥ — ١٠١) .

(٢) تعتز الاسكندرية بضريح ينسب إلى عبد الرحمن بن هرمز ، ولكن الشكوك تحوم حول نسبة هذا الضريح إليه ، انظر الفقرات الأخيرة من هذا المقال .

وقد وفد على الاسكندرية وعاش فيها عدد من التابعين الكرام رواة الحديث ، منهم :

ـــ ثمامة بن شفى الهمدانى أبو على المصرى ، نزيل الاسكندرية ، روى عن عقبة بن عامر وفضالة بن عبيد ، وثقه النسائى ، ومات قبل العشرين ومائة .

ـــ ضميم بن مالك الكلاعى الحميرى ـــ قاضى الاسكندرية ـــ روى عن ابن عمر .

ـــ ربيعة بن سيف المَعَافرى الاسكندرانى ، روى عن فضالة بن عبيد ، وروى عنه الليث بن سعد ، ووصفه الدارقطنى بأنه مصرى صالح ، وتوفى فى حدود عشرين ومائة .

ـــ وزاهر بن معبد بن عبد الله بن هشام التيمى ، أبو عقيل ، نزيل مصر ، روى عن جده ، وله صحبة عن ابن عمر وابن الزبير ، ومات بالاسكندرية سنة ١٣٥ هـ عن سن عالية .

ومنهم صاحبنا الذى نتحدث عنه فى هذا المقال : عبد الرحمن بن هرمز ، أبو داود المدنى .

وحياة ابن هرمز غامضة غموضاً عجيباً ، ولم تصلنا عنه إلا شذرات قليلة ، سنحاول ـــ بعد جمعها ودراستها ـــ أن نستوضحها وأن نستشف منها صورةً لهذا العالم الجليل ، وطرفا من سيرته .

* * *

هو عبد الرحمن بن هرمز بن أبى سعد ، وكنيته أبو داود ، المشهور بالأعرج ، القرشى ، المدنى .

كان يرتبط بأسرة بنى هاشم ـــ أسرة الرسول عليه السلام ـــ برابطة الولاء ، فهو مولى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وفى رأى آخر أنه مولى محمد بن ربيعة .

لا نعرف شيئا عن سنة ولادته ، ولـكننا نعرف من الطبقة الثانية أنه من التابعين ، وأنه ولد فى المدينة النبوية ، وعاش فيها فى وقت كانت المدينة فيه مجتمع الخلّص من علماء المسلمين من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين ؛ وكان العلم الذى يشغل الناس فى ذلك الوقت هو القرآن وتفسيره ، والحديث وروايته ، والفقه ومشاكله ، والعربية وأصولها .

وقد تتلمذ عبد الرحمن بن هرمز على جم غفير من الصحابة الذين أدركهم فهو قد سمع الحديث ورواه عن : أبى هريرة ، وأبى سيد الخدرى ، وعبد الله ابن مالك بن بُحَيْنة ، وأبى سلمة بن عبد الرحمن ، وابن عباس ، وعمير مولى ابن عباس ، ومحمد بن مسلمة ، ومعاوية بن أبى سفيان ، ومعاوية بن عبد الله بن جعفر ، وأسيد بن رافع ، وعبد الله بن كعب بن مالك ، وكثيرين غيرهم .

ويبدو من هذا الثبت الحافل أن ابن هرمز كان تلميذاً مجداً ، وأنه كان يتحرى الصواب فى دراسته للحديث ، ولهذا لم يقتنع بالأخذ عن صحابى واحد ، ولم يلزم أستاذاً واحداً ، ومع هذا فإن المراجع تذكر أنه كان أكثر ملازمة لأبى هريرة ورواية عنه ، فقد قال السيوطى فى ترجمته له :

« هو صاحب أبى هريرة ، أحد الحفاظ والقراء ، أخذ القراءة عن أبى هريرة وابن عباس ، وأكثر من السنن عن أبى هريرة[1] » .

وقال الذهبى فى تاريخ الإسلام :

« وكان ثقة ثبتا ، عالما بأبى هريرة[2] » .

وروى ابن سعد فى طبقاته قال : حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبى سَبْرة ، عن عثمان بن عبيد الله بن أبى رافع ، قال : رأيت من يقرأ على الأعرج

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٢) الذهبى : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .

حديثه عن أبي هريرة عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيقول : هـذا حديثك يا أبا داود ؟ قال : نعم ، قال : فأقول حدثنى عبد الرحمن وقد قرأت عليك ؟ قال : نعم ، قل : حدثنى عبد الرحمن بن هرمز[1] » .

وقال ابن قاضى شهبة فى طبقاته :

« عبد الرحمن بن هرمز بن أبى سعد الأعرج أبو داود المدنى ، مولى محمد بن ربيعة ، المقرىء المحدث ، صاحب أبى هريرة[2] » .

فإذا عرفنا أن أبا هريرة — رضى الله عنه — كان من أكثر الصحابة ملازمة للرسول ورواية لأحاديثه (حتى ليقال إن الأحاديث التى تضاف إليه تقدر بخمسمائة وثلاثة آلاف حديث) أدركنا أىّ علم حصّل عبدالرحمن ابن هرمز بتتلمذه على أبى هريرة وملازمته له ، حتى لقد وصفه ابن سعد بأنه كان ثقة كثير الحديث[3] ، وقال البخارى : « أصح أسانيد أبى هريرة أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة » ، ووصفه السيوطى بأنه كان وافر العلم ، مع الثقة والأمانة[4] » .

* * *

ولم يكن الحديث هو العلم الوحيد الذى تفرغ ابن هرمز لدراسته وروايته ، ولكنه كان من العلماء الثقات بأنساب العرب ، قال الذهبى فى طبقات القراء : « وله خبرة بأنساب قريش » ، وقال السيرافى : كان أعلم الناس بأنساب قريش » .

وتوافر ابن هرمز أيضاً على دراسة القرآن وقراءته . وكان من الثقات المتثبتين ، يلجأ إليه الناس للقراءة عليه ، ويعهدون إليه بكتابة المصاحف

---

(١) ابن سعد : الطبقات ، ج ٥ ، ص ٢٠٩ .
(٢) ابن قاضى شهبة : الطبقات ، مخطوطة دار الكتب القاهرة .
(٣) ابن سعد : المرجع السابق ؛ وانظر أيضا : النووى : تهذيب الأسماء واللغات ، القسم الأول ، الجزء الأول ، ص ٣٠٥ — ٣٠٦) .
(٤) السيوطى : المرجع السابق .

لاطمئنانهم إلى حفظه وقراءته وعلمه ومعرفته ، ولهذا تكاد تجمع المراجع على وصفه بالمقرىء المحدث ، وقال ابن سعد :

« كان الأعرج يكتب المصاحف » .

وقال الذهبي فى طبقات القراء :

« كان الأعرج أحد من برز فى القرآن والسنة »[1] .

ووصفه فى تذكرة الحفاظ بأنه « كاتب المصاحف » ، وبأنه « كان ثقة ثبتا عالما مقرئا » ، وقال فى ترجمته له فى تاريخ الإسلام :

« وكان يكتب المصاحف ويقرىء القرآن »[2] .

وكان عبد الرحمن بن هرمز — مع عنايته بعلوم الحديث والقرآن — عالما مبتكرا ، فإن المراجع والروايات تكاد تجمع على أنه أول من وضع علم العربية والنحو ، فبعضها ينسب هذا إلى أبى الأسود الدؤلى ، وبعضها ينسبه إلى ابن هرمز ، والبعض الثالث ينسبه إليهما معا ، فقد روى ابن لهيعة عن أبى النضر قال :

« كان الأعرج أول من وضع العربية » .

وقال القفطى فى إنباه الرواة :

« قال اهل العلم : إنه (أى الأعرج) أول من وضع علم العربية ، والسبب فى هذا القول أنه أخذ عن أبى الأسود الدؤلى ، وهو أول من أظهره وتكلم فيه بالمدينة ، وكان من أعلم الناس بالنحو »[3] .

وقال ابن قاضى شهبه :

« وهو أول من وضع النحو فى قول » .

---

(١) رواه عنه ابن قاضى شهبة فى المرجع السابق .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .

(٣) القفطى : إنباه الرواة ، نشر محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج ١ ، ص ١٧٢ — ١٧٣ .

وقد فصّل الزبيدى فى كتابه « طبقات النحويين » الأسباب التى دعت إلى إبتكار علم النحو فى أواخر القرن الأول الهجرى ، وأرجعها إلى انتشار الإسلام بين الشعوب غير العربية ، وما تبعه من تبابل الألسنة وخروج هؤلاء المسلمين الجدد عن قواعد النطق الصحيحة عند العرب ، وأشار الزبيدى فى حديثه هذا إلى العلماء الذين ينسب إليهم الفضل فى وضع علم النحو ومن بينهم : أبو الاسود الدؤلى ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، قال :

« ولم تزل العرب تنطق على سجيتها فى صدر إسلامها وماضى جاهليتها حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان ، فدخل الناس فيه أفواجا ، وأقبلوا إليه أرسالا ، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة ، ففشا الفساد فى اللغة العربية ، واستبان منها فى الإعراب الذى فى هو حَلْيُهَا والموضح لمعانيها فتفطن لذلك مَنْ نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب ، فعظم الإشفاق من فُشُوِّ ذلك وغَلَبته ، حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم إلى أن سببوا الأسباب فى تقييدها لمن ضاعت عليه ، وتثقيفها لمن زاغت عنه .

فكان أول من أصّل ذلك وأعمل فكره فيه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلى ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، فوضعوا للنحو أبوابا ، وأصّلوا له أصولا ، فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم ، ووضعوا باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف ، وكان لأبى الأسود فى ذلك فضل السبق وشرف التقدم ، ثم وَصَل ما أصّلوه من ذلك التالون لهم والآخذون عنهم ، فكان لكل واحد منهم الفضل بحسب ما بسط من القول ، ومدّ من القياس ، وفتق من المعانى . وأوضح من الدلائل ، وبيّن من العلل »[1] .

وكان عبد الرحمن إلى هذا كله الأستاذ الأول للإمام مالك — إمام

---

(١) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ، نشر أبو الفضل إبراهيم ، ص ٢ .

دار الهجرة ـ عنه أخذ العلم أول ما أخذ ، وظل يصاحبه ويلازمه وحده سنين طويلة ، على هذا تجمع المراجع ، وإن اختلفت فى تحديد العلم أوالعلوم التى أخذها التلميذ عن الأستاذ ، فقد جاء فى كتاب « إنباه الرواة » للقفطى :

« يروى أن مالك بن أنس إمام دار الهجرة ـ رضى الله عنه ـ اختلف إلى عبد الرحمن بن هرمز عدة سنين فى علم لم يبثه فى الناس ، فمنهم من قال : تردد إليه لطلب النحو واللغة قبل إظهارهما ، وقيل : كان ذلك فى علم أصول الدين وما يُرَدُّ به مقالة أهل الزيغ والضلالة ... والله أعلم »[1] .

ولد الإمام مالك ـ رضى الله عنه ـ فى المدنية فى أواخر القرن الأول للهجرة ـ فى سنة ٩٣هـ على أرجح الأقوال ـ ، وفى المدينة نشأ ، وفيها عاش عمره كله لم يغادرها البتة إلا إلى مكة للحج .

وكانت المدينة فى ذلك الوقت حافلة بعدد كبير من التابعين ، وكانت موطن العلم وموئل العلماء ، وفى مقدمتهم عالمنا عبد الرحمن بن هرمز ، ولاتصال مالك به وتتلمذه عليه قصة طريفة ، روى ابن مالك نفسه هذه القصة قال :

« كان لى أخ فى سن ابن شهاب ، فألقى أبى يوما علينا مسألة ، فأصاب أخى وأخطأت ، فقال لى أبى : ألهتك الحمام عن طلب العلم ؛ فغضبت ، وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين (وفى رواية ثمانى سنين) لم أخلطه بغيره وكنت أجعل فى كمى تمراً وأنا وله صبيانه ، وأقول لهم : إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول » ،

ومن هذا الحديث نستطيع أن نعرف أن مالكا بدأ يتتلمذ على ابن هرمز فى حداثته أى فى نحو العاشرة من عمره بعد أن بلغ مبلغ من يسأل فيخطىء أو يصيب ، ويؤاخذ على خطئه وصوابه ، ولا يمكن بداهة أن يبلغ الصبى هذا المبلغ ويؤاخذ هذه المؤاخذة قبل العاشرة ؛ ونستطيع أن نعرف كذلك أن عتاب أبيه كان ذا أثر قوى فى نفسه ، فدفعه إلى ترك اللهو واللعب والتفرغ إلى طلب

---

(١) القفطى : إنباه الرواة ، ج ١ ، ص ١٧٢ — ١٧٣ .

العلم وملازمة أستاذ بعينه ـ هو ابن هرمز ـ سنين طويلة ، أقلها سبع سنين ؛ ونستطيع أن نعرف أن التلميذ الصغير مالـكا ، كان حريصا الحرص كله على الإفادة من علم أستاذه كله حتى ليتحايل فيهدى صبيان ابن هرمز بعض التمر ليمنعوا أى وافد من الدخول إليه أثناء الدرس ؛ ونستطيع أن نعرف أخيراً أن ابن هرمز كان قد وصل فى ذلك الوقت سن الشيخوخة ، بدليل قول مالك : « وكنت أقول لصبيانه : إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول ».

وقد أعجب ابن هرمز الأستاذ ، بمالك التلميذ ؛ فكان أشد حرصا على الاجتماع به وملازمته والتدريس له ومذاكرته فى العلوم المختلفة ، فقد جاء فى المدارك :

« قال ابن هرمز يوما لجاريته مَنْ بالباب ؟ فلم تَرَ إلا مالـكا فرجعت فقالت ما ثَمَّ إلا ذاك الأشقر ، فقال : ادعيه فذلك عالم الناس ؛ وكان مالكٌ قد اتخذ تُبَّانا ـ أى سروالا ـ محشوا للجلوس على باب ابن هرمز ، يتقى به برد صخر المسجد ، وفيه كان مجلس ابن هرمز ».

فابن هرمز يصف تلميذه مالـكا بأنه عالم الناس ؛ والدرس يطول ساعات وساعات لا يسأم من طوله الأستاذ ولا يضجر التلميذ ، بل إن التلميذ يتحذ لهذه الجلسات الطويلة عدتها . فيلبس سروالا مبطنا يقيه برد الحجر على باب ابن هرمز إن طال به الانتظار ، ويقيه برد الصخر بالمسجد إن طالت به ساعات الدرس ، فإنه يروى أن مالـكا كان يلازم ابن هرمز من بكرة النهار إلى الليل . جاء فى المدارك نقلا عن مالك نفسه :

« كنت آتى ابن هرمز بكرة ، فما أخرج من بيته حتى الليل ».

ومن هذا يتضح أن مالـكا كان يتلقى دروسه على ابن هرمز فى البيت تارة ، وفى المسجد تارة أخرى .

وقد عرفنا من قبل أن ابن هرمز كان من الثقات ، أجمعت المراجع على توثيقه ووصفه بالأمانة ، وأنه كان يتحرى الصواب فى روايته للحديث ، ولهذا كان اثره فى تلميذه مالك واضحا ، فنشأ مالك دقيقا متثبتا ، يترسم خطى أستاذه ، ويلتزم أسلوبه فى البحث والتحرى ، ولهذى يروى أن مالكا كان يكثر من قوله : « لا أدرى » وأنه كان يقتدى فى هذا بأستاذه ابن هرمز . جاء فى المدّارك :

« قال مالك : سمعت ابن هرمز يقول : ينبغى أن يورث العالم جلساءه قول لا أدرى حتى يكون ذلك أصلا فى أيديهم يفزعون إليه ، فإذا سئل أحدهم عما لا يدرى قال لا أدرى ... قال ابن وهب : كان مالك يقول فى أكثر ما يُسأل عنه : لا أدرى » .

وهكذا تكون شيمة العالم الحق ، لا يأنف أن يقول لا أدرى إذا كان لا يدرى ، ويأنف أن يفتى بما لا يعلم ، بل لقد بلغ من دقة ابن هرمز وشدة حرصه أنه كان لا يحب أن يروى عنه ، ولهذا نهى مالكا أن يذكر اسمه فى سنده ، وآثر بهذا أن يخمل ذكره عن أن يشيع عنه النقل وقد يكون منه الخطأ ، فيجرح ويتهم بالكذب .

وكان مالك ذا عقل وبصيرة ، ينقد ما يستمع إليه نقد العارف الخبير ، ولهذا كان ابن هرمز يؤثره هو وصاحبه عبد العزيز بن أبى سلمة على غيرهما من تلاميذه ، لأنهما ينبهانه إلى الخطأ إن أخطأ ، حتى لقد قيل له : « نسألك فلا تجيبنا ، ويسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما » ، فيقول : « دخل علىّ فى بدنى ضعف ، ولا آمن أن يكون قد دخل علىّ فى عقلى مثل ذلك ، وأنتم إذا سألتمونى عن الشىء فأجبتكم قبلتموه ، ومالك وعبد العزيز ينظران فيه ، فإن كان صوابا قبلاه ، وإن كان غيره تركاه »

أما ما هو العلم الذى أخذه مالك عن ابن هرمز فهذا ما لا نعرفه على وجه التحقيق ، فقد روينا من قبل عن القفطى وغيره أن مالكا اختلف إلى عبد الرحمن ابن هرمز عدة سنين فى علم لم يبثه فى الناس ، « فمنهم من قال :

تردد إليه لطلب النحو واللغة قبل إظهارهما ، وقيل كان ذلك من علم أصول الدين وما يرد به مقالة أهل الزيغ والضلالة » ، ولسنا نميل إلى الرأى الأول لأن علم النحو واللغة ليس به من الأسرار ما يخشى معه أن يبث بين الناس ، والرأى الثانى أقرب إلى الصواب ، ويؤكد أن مالكا قال عن أستاذه ابن هرمز أنه « كان من أعلم الناس بالرد على أهل الأهواء وما اختلف فيه الناس » .

فهذه العبارة تدل على أنه كان يتلقى عليه اختلاف الناس فى الفتيا والفقه ، ويتلقى عنه الرد على أهل الأهواء ، وهذه كلها أمور دقيقة شائكة لا يستساغ نشرها على كل الناس ، يقول الأستاذ محمد أبو زهرة فى كتابه القيم عن الإمام مالك :

« وكأنه بذلك يقسّم العلم قسمين : علم يلقى على الملأ والجمهور ولا يختص به أحد إذ لا ضرر فيه لأحد ، وكل العقول تقوى على قبوله واستساغته وهضمه والانتفاع به ، وقسم لا يصح أن يعرفه إلا خاصة الناس فلا يلقى ، لأن ضرره على بعض النفوس أكثر من نفعه ، كالرد على أهل الأهواء ، فإنه ربما يعسر فهمه على بعض العقول ، وربما يفهمونه على غير وجهه ... فيكون الضرر حيث كان يرجى النفع ، ولذلك لم يذع كل ما علمه عن ابن هرمز ، وإن كان تلقاه »

هذا موجز عن حياة ابن هرمز العلمية ، عرفنا منه أى العلوم كان يتقن ، وعرفنا منه مكانته العلمية الممتازة بين السادة الأفاضل من علماء المدينة وكبار التابعين ، وعرفنا منه صلته بتلميذه النابغة الإمام مالك — رضى الله عنه — ، ولم يكن مالك — بطبيعة الحال — تلميذه الوحيد ، بل أخذت عن عبد الرحمن أمّة من العلماء والمحدثين ، أشارت المراجع إلى نفر منهم ، وبجمل ما فيها أنه روى عنه : الزهرى ، وأبو الزناد عبد الله بن ذكوان ، وصالح بن كيسان ، ويحيى بن سعيد الأنصارى ، وزيد بن أسلم ، وموسى

ابن عقبة ، وجعفر ابن ربيعة ، وعلقمة بن أبي علقمة ، ومحمد بن عجلان ، وعبد الله ابن لهيعة ، وغيرهم .

وقد عاش عبد الرحمن بن هرمز عمره كله فى المدينة ، لم يغادرها — قبل رحلته الأخيرة إلى الإسكندرية — إلا مرة واحدة زار فيها الشام ، وقد انفرد ابن عساكر فى « تاريخ دمشق » بذكر رحلته هذه الشامية ، قال فى ترجمته لابن هرمز : « ووفد على يزيد بن عبد الملك » ، ونستطيع أن نحدد وقت هذه الرحلة بأنها كانت بين سنتى ١٠١ و ١٠٥ هـ ، ففى السنة الأولى ولى يزيد الخلافة ، وفى السنة الثانية توفى .

وقال البلاذرى فى « فتوح البلدان » :

« وحدثنى محمد بن سعد عن الواقدى أن ابن هرمز الأعرج القارىء كان يقول : خير سواحلكم رباطا الإسكندرية ، فخرج إليها من المدينة مرابطا ، فمات بها فى سنة ١١٧ هـ »[1]

ويبدو أن الرجل كان قد عمر وقارب المائة حين خرج مرابطا إلى الإسكندرية فهو كما عرفنا كان أقرب تلاميذ أبى هريرة إليه . صحبه مدة ، وأخذ عنه ، وروى عنه الحديث ؛ وابو هريرة توفى سنة ٥٧ أو ٥٨ هـ ، فإذا قدرنا أن سن ابن هرمز كانت عند وفاة أستاذه أبى هريرة ما بين الثلاثين والأربعين صح استنتاجنا أنه خرج إلى الإسكندرية وقد قارب المائة من عمره ، ويؤكد هذا الاستنتاج ما ذكرناه سالفا من تبرير ابن هرمز لإيثاره مالك وعبد العزيز دون بقية تلاميذه ، حين قال : « دخل علىّ فى بدنى ضعف ، ولا آمن أن يكون قد دخل علىّ فى عقلى مثل ذلك » ، وقد ذكرنا من قبل أيضا أن مالكا ولد فى سنة ٩٣ هـ ، وأنه بدأ يتتلمذ على

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٣٠ ، وقال (الذهبى : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٧٥) فى ختام ترجمته لابن هرمز : « انتقل فى آخر أيامه إلى مصر ، وتوفى غريبا بالاسكندرية سنة سبع عشرة ومائة على الصحيح » .

ابن هرمز فى العاشرة من عمره ، أى فى سنة ١٠٣ أو نحوها ، وأنه لازمه مدة أقلها سبع سنوات ، أى إلى سنة ١١٠ ؛ ولهذا نرجح أن ابن هرمز خرج إلى الإسكندرية بعد ١١٠ هـ ، ولهذا فهو لم يقم بالإسكندرية إلا سنوات قليلة ، نحو الخمس سنوات ، ثم توفى إلى رحمة الله فى سنة ١١٧ ، وهو تاريخ اتفق عليه جميع من ترجموا له .

ولم تشر المراجع بكلمة واحدة إلى هذه السنوات القليلة التى قضاها الشيخ ابن هرمز فى الإسكندرية قبل وفاته وكيف قضاها ، وأغلب الظن أن الرجل قضى هذه السنوات فى التدريس ورواية الحديث ، فقد كانت الإسكندرية — خير السواحل رباطا كما وصفها ابن هرمز — تجتذب إليها عـــددا كبيرا من علماء المسلمين ومن أفاضل التابعين ، وكان يقيم بها وقت مقام ابن هرمز بها عدد كبير من هؤلاء التابعين ممن ذكرنا ، من أمثال بن شفى الهمدانى ، وربيعة بن سيف المعافرى الإسكندرانى ، وزاهر ابن معبد بن عبد الله بن هشام التيمى ، وهؤلاء وغيرهم كانوا يكونون المدرسة الأولى التى أشاعت علوم القرآن والحديث والفقه واللغة ونشرتها فى مدينة الإسكندرية .

وفى الإسكندرية اليوم ، فى شارع رأس التين ، مسجد يسمى مسجد سيدى عبد الرحمن بن هرمز ، وبه ضريح ينسب إلى هذا التابعى الجليل ، ولم يشر إلى هذا المسجد وهذا القبر أحد من المؤرخين والرحالة إلا على مبارك فى كتابه «الخطط التوفيقية» ، ولم ينسبه إلى سيدى عبد الرحمن ، وإنما نسبه إلى بانيه « الحاج درويش أبى سن » ، فقد قال عند تعداد مساجد المدينة :

« مسجد أبى سن أصل أرضه مقبرة بها ضريح الشيخ عبد الرحمن ابن هرمس ، وكان عليه مقصورة من خشب ، فلما بنى ما حوله ودخل فى تنظيم المدينة بنى ذلك المسجد ، وجعل داخله ضريح الشيخ المذكور ، والذى بناه المرحوم درويش أبو سن ، وهو مسجد تام المرافق ،

حسن المنظر ، مقام الشعائر ، ويصرف عليه من الوقف »[1]

فالمسجد حديث البناء ، بنى فى منتصف القرن الماضى ، وقد زرته مرارا ، ورأيت فى أعلى محرابه لوحة صخرية كتب عليها :

« ألا إن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون ، بنى هذا صاحب الخيرات حاج درويش أبى سن ١٢٦٥ »

وإلى يسار المحراب غرفة بها ضريح تعلوه مقصورة خشبية ، هو المنسوب إلى سيدى عبد الرحمن بن هرمز ، وإلى جانبه ضريح رخامى بسيط دُفن به بانى المسجد الحاج درويش أبو سن ، وعلى حائط هذه الغرفة لوحة حجرية أخرى تحمل نصا شبيها بالنص السابق المرقوم أعلى المحراب .

والباحثون فى تاريخ الإسكندرية لا يطمئنون إلى صحة نسبة هذا الضريح إلى سيدى عبد الرحمن ، وقد أكد لى هذا الشك فضيلة الأستاذ الشيخ بشير الشندى — المدير السابق لمكتبة بلدية اسكندرية — ، وروى لى أن الشيخ محمد البنا — أحد علماء الإسكندرية فى القرن الماضى — كان يجتاز شارع رأس التين الحالى دائما فى طريقة إلى سراى رأس التين لزيارة الخديو إسماعيل ، وقد رأى ليلة فيما يرى النائم أن صاحب هذا الضريح يعاتبه ويقول له : « كيف تمر بقبرى ولا تحيينى ؟ » ، فسأله الشيخ « ومن أنت ؟ » ، قال : « أنا عبد الرحمن بن هرمز » ، وقصّ الشيخ البنا هذه الرؤيا على نفر من أصدقائه ، وكان من بينهم رجل فاضل من أثرياء المدينة هو الشيخ درويش أبو سن ، فتطوع لبناء هذا المسجد ليضم الضريح ، ومن ثمّ نسب المسجد والضريح إلى سيدى عبد الرحمن ابن هرمز ، ثم أوصى أن يدفن هو إلى جواره بعد وفاته .

فنسبه هذا الضريح إلى سيدى عبد الرحمن نسبة حديثة ، ترجع إلى منتصف القرن الماضى ، ولم يكن صاحب هذا الضريح معروفا قبل هذه

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية . ج ٧ ، ص ٧٠ .

الحادثة ، ويؤكد هذا الشك مرة أخرى أن دارس طبوغرافية المدنية لا يطمئن إلى وجود هذه البقعة من الأرض المقام عليها الضريح فى أوائل القرن الثانى للهجرة ، وأغلب الظن أن هذه البقعة كانت وقتذاك مغمورة بمياه البحر ، شأنها شأن معظم المنطقة التى يقوم عليها حى الأنفوشى ورأس التين .

ونحن إذا انتهينا من هذا الشك إلى شىء من الاطمئنان ، ثار أمامنا شك آخر ، فإلى القرب من شارع رأس التين الحالى ، وفى نهاية شارع الميدان بل على امتداده يوجد شارع يسمى شارع راوية الأعرج » ، وتقوم فيه زاوية صغيرة تسمى « زاوية الأعرج » ، وليس بها ضريح ، ويجرؤ البعض فينسبونها إلى سيدى عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، فقد كان الرجل أعرجا ، وشهر بهذه الصفة فى كتب الحديث .

ولكن هذه النسبة خاطئة أيضا ، والذى نرجحه أن هذه الزاوية تنسب إلى ولى آخر من أولياء الله الصالحين عاش فى الإسكندرية فى القرن الثامن للهجرة ، وكان اسمه « الشيخ برهان الدين الأعرج » ؛ ولهذا الشيخ قصة طريفة ، فهو المشجع الأول للرحالة المشهور ابن بطوطة على إتمام رحلاته فى الشرق الأقصى حتى يصل الهند والصين ؛ ذكر ابن بطوطة أنه زار هذا الشيخ أثناء زيارته لمدينة الإسكندرية ، وأنه أقام فى ضيافته ثلاثة أيام ،قال :

« ومنهم (أى من شيوخ الإسكندرية) الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج ، من كبار الزهاد وأفراد العباد ، لقيته أيام مقامى بالإسكندرية ، وأقمت فى ضيافته ثلاثا .

دخلت عليه يوما فقال لى : « أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد » ، فقلت له : « نعم ، إنى أحب ذلك » ، ولم يكن حينئذ خطر بخاطرى التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصين ، فقال : « لا بد لك إن شاء الله من

زيارة أخى فريد الدين بالهند ، وأخى ركن الدين زكريا بالسند ، وأخى برهان الدين بالصين ، فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام » ، فعجبت من قوله ، وألقى فى روعى التوجه إلى تلك البلاد . ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم ، وأبلغتهم سلامه ، ولما ودعته زوّدنى دراهم لم تزل عندى محوطة ، ولم أحتج بعد إلى إنفاقها ، إلى أن سلبها منى كفار الهنود فيما سلبوه لى فى البحر »[1] . .

ودارسو ابن بطوطة ورحلته يرون دائما أن هذه الكلمات الموحية من الشيخ برهان الدين الأعرج السكندرى هى التى أوحت إلى ابن بطوطة فكرة الارتحال إلى أن يصل إلى هذه الأطراف القاصية من بلاد المسلمين .

وبعد ، فلعلنا أزلنا بهذا التحقيق كثيرا من الشكوك التى تحيط بضريح سيدى عبد الرحمن بن هرمز ومسجده ، وبسميِّه برهان الدين الأعرج وزاويته ، ولعلنا قمنا ببعض الواجب علينا من التعريف بسيرة هذا التابعى الجليل الذى تعتز الإسكندرية به ، وحق لها أن تعتز به وأن تفخر ، فقد أصبح تاريخه جزءاً من تاريخها .

جمال الدين الشيال

---

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ١٦ — ١٧ .

مراجع البحث

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على)

= الكامل فى التاريخ ، ١٢ جزءا ، المطبعة الأزهرية بالقاهرة ١٣٠١ هـ

= اللباب فى تهذيب الأنساب ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٣٥٧ — ١٣٦٩

ابن بطوطة (محمد بن عبد الله)

= مهذب الرحلة ، نشر أحمد العوامرى وأحمد جاد المولى ، القاهرة ١٩٣٣

البلاذرى (أحمد بن يحيى)

= فتوح البلدان ، القاهرة ١٣١٨

ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ، أبو المحاسن)

= النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٢٩

ابن حجر . (شهاب الدين أحمد بن على العسقلانى)

= تهذيب التهذيب ، حيدر أباد الدكن ١٣٢٦ هـ ، الجزء السابع

الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)

= تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، القاهرة ١٣٦٧ — ١٣٦٩

= تذكرة الحفاظ ، أجزاء ، حيدر أباد الدكن (بدون تاريخ)

الزبيدى (أبو بكر محمد بن الحسن)

= طبقات النحويين واللغويين، نشر محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٤

أبو زهرة (الشيخ محمد)
= الإمام مالك ، القاهرة
ابن سعد (كاتب الواقدى)
= الطبقات الكبير ، نشر سخاو وآخرين ، ١٩٠٥ — ١٩٢١
السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر)
= حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزان ، القاهرة ١٣٢٧
= بغيه الوعاة ، القاهرة ١٣٢٦
ابن عساكر (أبو القاسم على بن الحسن)
= تاريخ مدينة دمشق ، والمجلد الأول ، نشر صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥١
ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى)
= شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، القاهرة ١٣٥٠ — ١٣٥٣
ابن قاضى شهبة (تقى الدين أحمد بن محمد)
= طبقات الشافعية ، مخطوط بدار الكتب المصرية
القفطى (جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف)
= إنباه الرواة على أنباء النحاة ، ظهر منه ٣ أجزاء ، ونشر محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠ — ١٩٥٥
مبارك (على)
= الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزءا ، بولاق ١٣٠٤ — ١٣٠٦
ابن النديم
= الفهرست ، طبع القاهرة (بدون تاريخ)
أبو نعيم (أحمد بن عبد الله)
= حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٣٥١ هـ